٨ ـ رحلة إلى الهنـــد

للدكتور عبد الوهاب عزام بك

عميد كلية الآداب

قطب منارة (منارة قطب)

على عشرة أميال إلى الجنوب من دهلى بين أطلال دهلى القديمة يقوم مسجد قوّة الإسلام . ومنارة قطب (قطب منارة) .

بناهما قطب الدين أيبك . وكان قطب الدين هذا مملوكا للسلطان محمد الغورى الذى مدّ فتوح الغزنويين فى الهند حتى فتح شماليّ الهند كله . واتخذ مدينة دهلى داراً للولاية . وولّى قائده قطب الدين على ، فتح من الهند .

فلما توفى الغورى سنة ٦٠٢ هـ استقلّ هذا الوالى بما وليه من الهند ، وتملّك عليه . وهو أول ملك مسلم ينشأ ملكه داخل الهند ويقتصر على أرض هندية . فأول دولة فتحت الهند وهى الدولة الغزنوية نشأت فى أفغانستان وكانت غزنة دار ملكها . ثم غلبها علبها الغوريون فاتخذت لاهور داراً . والدولة الغورية نشأت فى إقليم الغور من أفغانستان ثم غلبت الغزنويين على البلاد واقتفت آثارهم فى فتح الهند .

فالدولة التى أقامها قطب الدين أيبك — دولة المماليك — أول دولة إسلامية نشأت فى الهند .

وكانت دهلى دار سلاطينها وسلاطين أربع دول أخرى توالت بعدها حتى فتحها بابر مؤسس الدولة التيمورية سنة ٩٣٢ هـ وقد تسلطت دولة قطب الدين هذا زهاء ثمانين عاماً .

وكأن قطب الدين أراد أن يثبت سلطان الإسلام فى الهند ويظهر عظمته بإقامة الأبنية الضخمة الرائعة . فأنشأ هذا المسجد وسماه « قوّة الإسلام » . وأقام فيه هذا البرج العجيب المسمى مناوة قطب . وهو فى رأى الخبراء بالعمارة أعظم برج فى العالم .

أدع البرج إلى أن ألقى نظرة جامعة على هذا الجامع الفسيح .

لا تزال بقايا الأسوار والعمد والقباب تحدّد مساحة الجامع . وقد زاد فيه من بعد شمس الدين التتمش الذى تولى الملك بعد قطب الدين (٦٠٧ — ٦٣٣ هـ) وعلاء الدين الخلجى (٦٩٥ — ٧١٦ هـ) حتى صار فيما أظن أوسع جامع فى العالم .

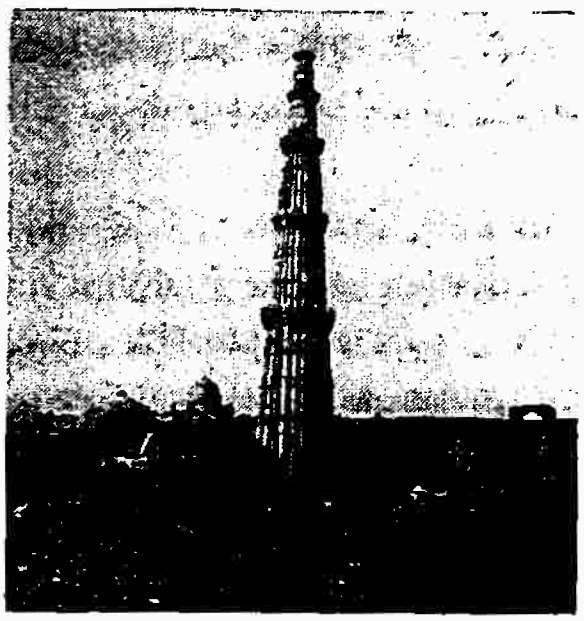

منارة قطب (قطب منارة) فى دهلى

واليك صورته الحاضرة كما يراها من يدخل من الباب الشرقى المقابل للقبلة تدخل من باب فى بقايا سور إلى ساحة واسعة تمشى فيها قليلا ثم تصعد درَجاً إلى مستوى آخر فترى ذات اليسار المنارة وقبة جميلة على باب من أبواب المسجد ، ويقال أنها سميت « قبة الإسلام » وبها سمى هذا المسجد « قبة الإسلام » لا قوة الإسلام .

ولكن لا يلتفت الداخل إلى هذه القبة فيسير إليها يهبط على الدرج الذى تحتها إلى المدخل فيستغرق فى تأمل علوها وجمال هندستها ونقوشها لا يستطيع أن يفعل هذا قبل أن يطمح بصره معجباً مرتاعاً إلى هذه المنارة الشاهقة العجيبة . وسأحدث القارىء عنها بعد طواف سريع فى هذا المسجد العظيم ؛ بل هذا المجد الأبىّ والمآثر الخالدة التى تأبى أن تُقِرّ للخطوب على كثرة ما نالت منها .

وإذا نظر الداخل إلى اليمين رأى كومة من الحجر هرميّة هى أساس خَرِب لمنارة حاول أن يناظرها منارة قطب علاء الدين الخَلْجى حينما زار فسحة الجامع . ولم يتهيأ له إكمال المنارة . وفى الساحة قبور لم أعرف عنها شيئاً .

ويمشي الزائر إلى المصلى فإذا ساحة فيها ثلاثة أروقة ذات طبقتين على عمد صغيرة . وإذا تأمل النقوش على هذه العمد رأى صُوَر حيوان وناس . وقد نقلت العمد من معابد هندية قديمة . وفي جهة القبلة من المصلى عمود من الحديد قطعةٌ واحدة طوله ثلاثة وعشرون قدماً . ومحيطه قدمان وهو من أقدم الآثار الهندية في دهلي أو أقدمها عليه كتابة تشيد بمآثر أحد أمراء الهند القدماء . وتاريخه يرجع إلى سنة ٤٠٠ ق م .

وتمضي بعد هذا العمود جهة القبلة إلى عقد رفيع جداً يُفضي إلى القسم القبليّ من الجامع وقد هُدِمت جُدُره .

وينزل السائر جهة الشمال إلى الساحة التي زادها على المسجد شمس الدين التتمش وهي مساحة لا بناء فيها اليوم . وينظر شطر القبلة إلى حجرة عالية سقطت قبتها وفي وسطها ضريح رهيب هو ضريح ايلتتمش . وفي الحجرة ثلاثة محاريب أكبرها أوسطها وعلى المحاريب آيات من القرآن منحوتة بخط واضح . في وسط المحراب الكبير « إنه لقرآن كريم — الآية » وعلى حافته : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل — الآية »

قد قرأتها ومن معي من وفود المؤتمر يتعجبون من مصري يقرأ خطاً آرياً في دهلي ، حتى عرفتهم أنه كتابي ولغتي .

وبعد ساحة التتمش ساحة زادها السلطان علاء الدين الخلجي . وليس بها إلا حطام البناء الشامخ أنحت عليه يد الزمان .

ثم منارة قطب إحدى عجائب الأبنية في الهند بل العالم كله منارة جليلة رفيعة تعلو في الجو ٢٣٤ قدماً بعد أن سقطت ذروتها . وهي خمس طبقات تنتهي كل واحدة بشرفة دائرة حول المنارة . ولها درج واسع صعدت فيه إلى الشرفة الأولى مائة وخمسين درجة .

والمنارة في شكل مخروطي . والطبقة الأولى لها واحد وعشرون ضلعاً تختلف أشكالها بين مدور على هيئة نصف دائرة يليه محدد على شكل زاوية قائمة . وهكذا على التوالي . والطبقة الثانية كل أضلاعها مدورة . والثالثة أضلاعها على زاوية قائمة ثم طبقة ملساء والخامسة مضلعة تضليعاً خفيفاً يكاد لا يرى

شاد المنارة قطب الدين إيبك حوالي سنة ٦٠٠ من الهجرة وكان لا يزال نائباً من السلطان محمد الغوري وأتمها مملوكه وصهره وخليفته إلتتمش الذي ذكرناه آنفاً . وقد تصدعت طبقتها العليا بصاعقة في القرن الثامن في عهد فيروز شاه فرمّها ثم سقطت هذه الطبقة في زلزال سنة ١٨٠٣ م . وقد رأينا على مقربة من الجامع برجاً صغيراً مستطيلا له أربعة أركان بينها أبواب علوه نحو خمسة أمتار . وقيل لي أنها صنعت في عهد الانكليز لتوضع على المنارة تكملة لها . فلما وضعت ألقيت غير ملائمة لها فأزلت .

وحول المنارة كتابة عربية منها آيات من القرآن وقد جعلت نطاقات جميلة زادت في جمال المنارة وجلالها . وقيل لي إن الكتابة قد نحتت على أحجام مختلفة ونِسَب متعددة تجعل الرائي يراها في حجم واحد ما بعد منها وما قرُب . كلما بعدت الكتابة زاد حجمها على نسبة بعدها .

وألوان المنارة تتوالى في طبقاتها من أحمر إلى ورد إلى أصفر فاتم يلائم زرقة السماء في فن الجمال .

والخلاصة أن في هذه المنارة من إبداع الهندسة ، وإتقان الصنع ، وجمال الشكل وفخامته ، وحسن النقش والخط ما يسير رائيها طائفاً ، أو يمكسه واقفاً ، يصعد الطرف ويصوبه في إعجاب بل دهش من هذا الأثر الخالد الذي جعله المسلمون فاتحة آثارهم العظيمة في الهند . فكان جديراً أن يكون عنواناً لكتاب الحضارة الزاهرة الذي خطه تاريخهم فيها .

عبد الوهاب عزام

اطلب نسختك

من الطبعة الجديدة من كتاب

تاريخ الأدب العربي

يطلب في فلسطين من مكتبة الطاهر إخوان بيافا